مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر:05–08–2020

بلاغةُ الحِجَاج والإقْناع في المُناظرة الكَلاميّة

Rhetoric Arguments and Persuasion in the Kalam dialogue(Debate)

أ . ســـامي ســـنوسي
samiphilo@hotmail.com
جامعة أبو القاسم سعد الله ـ الجزائر2

تاريخ الإرسال: 24_07_2018 تاريخ القبول: 10_04_2020

الملخـــص:

تتميز اللغة العربية عن سائر اللغات بغناها اللفظي، وقوتها البلاغية، لذا كان الإنتاج المعرفي المدوّن بها منفردا بالدقة والضبط، سواء أكان الإنتاج عربيا أصيلا كالعلوم الشرعية، أو مترجما كالفلسفة، ونحن في هذه الأسطر أردنا تبيان البلاغة وقوتها في المناظرة، التي نشأت بفعل الجدل في العقائد الإيمانية وظلت الطابع السائد في تعامل المسلمين مع غيرهم، فميّزت حينئذ الإنتاج العربي الإسلامي بالبلاغة وقوة الإقناع والتبليغ، وبدا ذلك في القدرة على صناعة الحوار، وطلب الاستدلال، وبناء الحجة، وهنا أصبحت المناظرة الكلامية مظهرا بلاغيا أضيف إلى عمق المعنى في اللغة العربية،

الكلمات المفتاحية: البلاغة، المناظرة، الحِجاج، الِاستدلال، علم الكلام

Abstract:

The Arabic language is distinguished from the other languages by its verbal richness and rhetorical power. For this reason, we find that the knowledge produced and written by this language very accurate, whether it is the original Arab production such as the relegious sciences or the interpreted one like philosophy. In these lines we wanted to demonstrate the Rhetoric and its power in the debate, which was emerged

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر:05–08–2020

by the controversy in the faith beliefs, and has been the prevailing character in the dealing of Muslims with others. Thus, it characterized the Arabo Islamic production by rhetoric and power of persuasion and reporting. All of this appeared in the ability to create dialogue, asking for reasoning, and building of the argument. Here, the verbal debate became a rhetorical phenomenon added to the depth of meaning in Arabic language.

Keywords: Rhetoric, debate, arguments, indication, theology- philosophy of religion .

المقدمـــة:

لئن مرت القرون الزمنية على تولى اللغة العربية الفصيحة شعرا ونثرا، إلا أن ذلك لا يمنع من العودة إلى التراث واستخراج تلك الآثار الخالدة، ودراسة أسرارها وتسويغها والعمل على استثمارها في المحاولات المعاصرة، وليست هذه مسؤولية دارسي اللغة فحسب، بل هي من واجب كل الطلاب المتخصصين في التراثيات. ونحن هاهنا حاولنا تبيان حكمة البلاغة وقوة الإقناع فيها في هذه اللغة، هذه البلاغة الحِجاجية التي تفتقر إليها سائر اللغات المتزامنة مع اللغة العربية في العصر الذهبي لها، أي في عصر بلاغتها المتناهية الإحكام والضبط، مع العلم بأن تطور اللغة مر بعدة مراحل، وقد حافظت هي على منطقها البليغ، بداية من حالة العرب وهم أهل بادية ـــ على العموم ـــ قبل الإسلام، وفي هذه المرحلة تميزت بالفصاحة الشعرية والنثرية المتعالية البلاغة، ثم ومع مجيء الإسلام وتنزيل القرآن بلسان العرب، زادت هذه اللغة حجة لكون الله ـــ تعالى ـــ اصطفاها من دون باقي اللغات لحمل تعاليم الدين، للعرب ولغيرهم من العالمين؛ ثم ظهرت رئاسة اللغة العربية بعد انتشار الفتوح الإسلامية واشتداد الحاجة إلى تبني منطقها لمقتضى فهم القرآن المنزل هو الآخر باللسان العربي.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

وفي هذا الوضع الحضاري بين العرب وغيرهم من فرس وروم وهنود، بدأ يتشكل الحوار للتفاهم والتبليغ والمحاججة، حول قضايا الدين بالأساس، عندها تم إعطاء الأوامر بترجمة الإنتاج العلمي والفلسفي من باقي الألسن إلى اللسان العربي، وأضحت العلوم العقلية اليونانية شائعة في الجو المعرفي الإسلامي، فتشبعت اللغة العربية حينئذ بمقولات المنطق المسدد للتفكير الإنساني، وخرجت إلى الوجود الممارسة الحوارية والتحاورية بين المسلمين وغيرهم تارة، وبين المسلمين فيما بينهم تارة أخرى، وقد عُهد إلى هذه الممارسة باسم المناظرة، وبعدها عرفت اكتمالها في صناعة علم الكلام الرائج من بين سائر العلوم في توسل أصحابه بمنهجها (المناظرة)، ولم تكن غائبة في عرف العرب من قبل، بل كان وجودها البلاغي متواريا ومضمرا أمام قوة القصيدة الشعرية والخطابة النثرية.

وطالما أن الحوار ظل هو المميز لتفاعل المسلمين مع غيرهم، فإن ذلك جعلهم الأقدر على صناعة الجدل، وبناء الحجة، وطلب الاستدلال، ولا يساعد على هذا العمل أكثر من البلاغة بوصفها القضية الكلية التعريفية للغة العربية، وها هنا نطرح الإشكالية: كيف تجلّت قوة البلاغة في فعل المناظرة الكلامية بوصفها الطابع الشائع للإنتاج المعرفي الإسلامي من حيث المنهج؟ وكتجزيء للإشكالية، نقول: ما المقصود بالبلاغة والكلام والمناظرة ؟ وأين بانت قوة البلاغة في منهج المناظرة ؟

1ـــ ضبط المفاهيم:

أـــ في تعريف البلاغة:

لغة: بلغ الشيء، يبلغ بلوغا وبلاغا، وصل وانتهى، والبلاغة: الفصاحة، والبليغ، حسن الكلام فصيحه، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، والجمع بلغاء[1].

[1]– ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة، مادة: بلغ .

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

وفي الاصطلاح قال الجاحظ: " **قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، وقيل لليوناني:** ما **البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام، وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة**[1]"، بهذا تكون البلاغة وصفا للكلام والمتكلم، لأن الكلام يؤدي إلى مآلات للسامع يستدرك من خلالها المعنى، أو المعاني، ثم أن المتكلم المتميز بالفصاحة أو البلاغة هو الأقدر على صناعة الكلام الحامل والحاوي للمعاني الجاذبة للسامع، أو المقنعة له، أو المحاججة لحججه إن كانت الممارسة مناظرة كلامية، والفصاحة جزء من البلاغة، والكلام الفصيح يصف المفرد والكلام والمتكلم، بينما الكلام البليغ يصف الكلام والمتكلم فقط[2].

وبهذا تصبح البلاغة أوسع من الفصاحة، فكل بليغ فصيح وبعض الفصيح بليغ، وليس كل فصيح بليغ، لأن الفصاحة من الإفصاح وتختص أساسا باللفظ، بينما تختص البلاغة بالإبلاغ وبذلك تتعلق أكثر بالمعنى الخفي للّفظ أو الكلمة، بهذا تكون ممارسة الحجة البلاغية أعمق في النفس من الممارسة الفَصحية ـــ إن صح التعبير ـــ والكلام العربي أفصح الكلام على الإطلاق، وليس ذلك مبالغة وعنادا، لأن الله ـــ عز وجل ـــ أنزل القرآن الكريم باللسان العربي؛ فيقول ـــ سبحانه ـــ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿٢﴾﴾ (**يوسف: الآية 02**)، فرُبط القرآن المترل باللسان العربي بفعل المعقولية عند العرب، وليس هناك أبلغ من القرآن في قوة المعاني والإبلاغ بها، بلاغة وفصاحة وتأثيرا في نفوس السامعين.

[1]– الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، 1998، ص 88.

[2]– محمد علي زكي صباغ: البلاغة الشعرية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 1998، ص: 141.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر:05–08–2020

ب ــ في تعريف المناظرة:

المناظرة هي المباحثة والمباراة في النظر واستحضار كلُّ ما يراه ببصيرته، أو هي إقبال كل واحد على الآخر بالمحاجَّة، وهي المفاوضة على سبيل الجدل[1]، فما نلتمسه الآن هو أن المناظرة هي محاورة عميقة بين شخصين أو بين فرقتين، مع التزام كل طرف بإتباع الحق والصواب، وبمعنى آخر انقياد كل مناظر للحجة الدامغة حتى ولو كانت من إنتاج الخصم المفحم، وبالتالي فالمناظرة هي ممارسة منهجية تتطلب من المتخاصمين إظهار الحق أو تأجيل الجدل والمخاصمة إلى وقت آخر، ثم أنها توجب مستوى معرفيا من الطرفين لتجعل السامعين شاهدين على قرع الحجة بالحجة والانتصار في الأخير للمفحم وإتباع دعواه.

ج ــ في تعريف الكلام:

"قيل: **الكلام: ما له نظام من هذه الحروف على وجه يصح من القائل أن يبتدئ بما يريد وينتهي بما يريد، وقيل: "ما هو مركب من الحروف المعقولة المتميزة، إذا وقع ممن يصح أن من قبيله الإفادة، والأول أوجز وأقرب، هذا عند المتكلمين.**[2].

وبهذا يصبح الكلام الإنساني هو نظام من المنطوق شريطة أن يحمل معنى مقبولا من طرف السامع، لهذا نجد القاضي عبد الجبار المعتزلي يقول: "والذي نختاره في حد الكلام: أنه ما حصل فيه نظام مخصوص من هذه الحروف المعقولة، حصل في حرفين أو حروف، فما اختص بذلك وجب كونه كلاما، وما فارقه لم يجب كونه كلاما، وإن

[1]– محمد قائمي وآخرون، معجم المصطلحات الكلامية، المجلد الثاني، مجمع البحوث الإسلامية، إيران، مادة: المناظرة، ص، 326.

[2]– أبو جعفر محمد بن الحسن النيسابوري: الحدود، المعجم الموضوعي للمصطلحات الكلامية، تحقيق: محمود يزدي مؤسسة الإمام الصادق، قم، ص46.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر:05–08–2020

كان من جهة التعارف لا يوصف بذلك إلا إذا وقع ممن يفيد أو يصح أو يفيد، فلذلك لا يوصف منطق الطير كلاما، وإن كان قد يكون حرفين أو حروفا منظومة"[1].

وفي هذه العبارة حدد القاضي عبد الجبار شروطا للكلام حتى يكون كلاما بالمعنى البلاغي ـــ الإيصالي ـــ أو التوصيلي بين المتخاطبين ولعل أبرز ما بين ذلك الحروف المعقولة، وقال: بأن منطق الطير ليس بكلام رغم اختصاصه بالنظم الصوتي، الذي يتلقاه السامع، هذا وينقل القاضي كذلك عن أبي علي قوله: "في الكلام إذ يراه حروفا، ولا يستثني في ذلك المكتوب والمحفوظ، وإن لم يقارنهما صوت[2] ثم يوضح القاضي بقوله مرة أخرى في الكلام: "وإنما نقول: أن الصوت يوجد معه إذا كان مسموعا، لأن الكلام هو الصوت عنده، فكيف يصح أن نقول في بيان حد الكلام إنه أصوات مقطعة"[3]، وعليه يصبح الكلام عند عموم المعتزلة نظاما حرفيا وصوتيا معقولا، وليس كل نظم صوتي هو الكلام، فليس صوت الرعد أو الريح كلاما، أو غيرها من أصوات الحيوان، لأن المعقولية غائبة رغم التزام الصوت، وبهذا يمكننا استنتاج التقدير الإعتزالي في الكلام صنفين، كلام إلهي معقول، وكلام إنساني يتلقى الكلام الإلهي نفسه، ولا يحدث ذلك إلا بوجود العقل، وعليه يكتمل شرط الكلام في كونه حاملا للصورة المنطقيةـــ العقلية بالأساس، وكل ما عدا ذلك لا يعد كلاما وتاليا لا يعتد بمعناه ويبقى مجرد أساطير خرافية، وسنأتي على ذكر تعريف علم الكلام، وسنجد أن بعض تسمياته بهذا الاسم يعود في الحقيقة إلى الكلام المعقول ذاته، وبالجملة الكلام هو المكتوب والمسموع العقليان.

[1]– القاضي عبد الجبار: المغني، جزء خلق القرآن، تقويم: إبراهيم الأبياري، إشراف طه حسين، دط، د ت، ص: 7.

[2]– القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل، المصدر السابق: ص7.

[3]– المصدر نفسه: ص7.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

د ــ في تعريف علم الكلام:

إنه ليس من الصدفة العمياء أن يطلق على علم أصيل في الحضارة الإسلامية اسم علم الكلام، فرغم التسميات العديدة الأخرى إلا أنه ظل محتفظا بهذه الكنية معروفا بها ومتميزا عن غيره من العلوم، وهنا دلالة أخرى على كون هذا العلم أكبر العلوم الإسلامية الإنتاجية في مجال المناظرة الموروثة لتفعيل العقل وتنشيطه، بين المتحاورين، سواء كانوا أو غيرهم، وهاهنا خصه صاحب العقائد النسفية بقوله: "**ولأنه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات، وإلزام الخصوم كالمنطق للفلاسفة، ولأنه أول ما يجب من العلوم التي إنما تعلم وتتعلم بالكلام، فأطلق عليه هذا الاسم لذلك، ثم خص به، ولم يطلق على غيره تمييزا، ولأنه إنما يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين، وغيره قد يتحقق بمطالعة الكتب والتأمل، ولأنه أكثر العلوم نزاعا وخلافا، فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخلفين والرد عليهم، ولأنه لقوة أدلته صار هو الكلام دون ما عداه من العلوم، ما يقال للأقوى من الكلاميين: هذا هو الكلام**"[1].

فعلم الكلام حسب النسفي سمي لأصل الكلام ذاته، فتارة لعلة انتشار هذا العلم بالكلام، وتارة بقوة أدلته أثناء المباحثة (المناظرة)، فيصبح هو الكلام أمام باقي الممارسات السفسطائية، وتارة ثالثة يناظر الكلام في الشرع المنطق في صناعة الفلسفة، وبالجملة، عرف الكلام الإسلامي بخصيصة معناه وهذا أيضا من أوجه البلاغة في هذا العلم، وقوة حججه أثناء الإقناع وبناء الموقف الاستدلالي للدفاع.

2 ــ ركائز البلاغة العربية:

[1] – سعد الدين التفتازاني: شرح العقائد النسفية، تقديم: مجلس المدينة العلمية، مكتبة المدينة، ط2، باكستان، 2012، ص ص 54ــ55.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر:05–08–2020

قبل تحليل نماذج من المناظرة الكلامية لإبراز بلاغة العربية فيها، لا بد أولا من الوقوف على ركائز علم البلاغة حسب علمائها العرب، ولعلنا سنكتفي ببيان الوجه الدلالي الخاص بأبعاد المعاني والبيان والبديع، وكلها تمثل المنطق التوصيلي والاستدلالي والحجاجي والجمالي الذي تتضمنه المناظرة كممارسة أصيلة في الحضارة العربية الإسلامية، ليس في علم الكلام وحسب، بل ظلت السمة البارزة والمنهج الناجح في التعليم والتعلم.

أـــ علم المعاني: "هو أصول وقواعد يعرف بها كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال، بحيث يكون وفق الغرض الذي يسيق له، وموضوعه اللفظ العربي من حيث إفادته المعاني الثواني، التي الأغراض المقصودة للمتكلم من جعل الكلام مشتملا على تلك اللطائف والخصوصيات التي بها يطابق مقتضى الحال"[1]، والمقصود بإفادة المعاني الثواني هو أن كلام العرب تقريبا كله ليس مجرد محاكاة، بل هو الحامل لمعاني باطنة تستكشف من المعنى المقصود، وليس مجرد سماع لكلام عادي، وعابر، لهذا اشتملت اللغة العربية على معاني عديدة للفظة واحدة، إذ قد تؤدي الكلمة الواحدة معنيين مختلفين أو حتى متناقضين، في الآن نفسه، وهذا ما سنتوقف عليه في البيان والبديع، وفي كلمة جامعة المراد من علم المعاني هو العلم الواقف على تحليل النص وتفكيكه إلى جمل وكلمات وبيان الخبر والإنشاء منها والمسند والمسند إليه، والإيجاز والإطناب وغيرها.

ب ـــ علم البيان: يرى الجاحظ أن "**البيان اسم جامع لكل شيء كشف لنا عن قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر**

[1] – أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة، ضبط وتدقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، د ت، ص ص46ـــ 47.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلّغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع[1]" هذا ويقول السكاكي أن البيان هو "**إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه**"[2]، لذلك نجد كثيرا من الشعراء والمتكلمين يلجأون تارة إلى التشبيه والاستعارة والكناية لزيادة المعنى قوة وإيضاحا، وتارة أخرى يستندون إلى الإيجاز والاختصار للحرص من الإطناب والبعد بالمعنى المقصود عن الخطأ، أو الشبهة في الوقوع فيه، وعليه يمكن فهم البيان من خلال الزيادة والنقصان في الكلام، إما للإيضاح وإما للإيجاز.

هذا، ولما كان البيان مهتما في بواكيره الأولى بالمعاني الحقيقية والمجازية، فقد خص هو بعلم البلاغة كله، وحتى كلمة البيان في اشتقاقها اللغوي تعني الوضوح والإبانة في الملفوظ والمكتوب[3]، فأن نقول لزيد: بين ووضح، بالتقريب كأن نقول له: بلّغ وأفصح عما يدور في خاطرك، وبهذا يُعد البيان أساسا في اللغة العربية شعرا ونثرا، ثم يصبح أساسا في المناظرة الكلامية لأنها تمثل الممارسة الحاوية لفعل المحاججة وطلب البرهان من الخصوم، وهاهنا يتبين لنا بالجملة أن المناظرة الكلامية في صورتها الغائية تسعى للبيان والإفصاح عن طريق قرع الحجة بالحجة، وهذا لغرض الدفاع والإقناع.

ج ــ علم البديع: الإنسان العربي لم يبق مهتما بالمقصود من كلامه وفقط، بل راعى الجوانب الجمالية هيوليا وصوريا، أو ظاهريا وباطنيا، "وإذا تقرر أن البلاغة

[1]– الجاحظ: البيان والتبيين: مصدر سابق، ص 76.

[2]– السكاكي: مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1987، ص62.

[3]– محمد مصطفى: علم البيان، دار العلوم العربية، ط1، بيروت، 1989، ص13.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

بمرجعيتها وأن الفصاحة بنوعيها، مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسن، فهاهنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها، لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها وهي قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ"[1].

والواضح في علم البديع أنه المختص بجماليات اللغة، فالمقابلة والطباق من محسناتها المعنوية، لأنها تضفي قوة استدلالية يدركها السامع، ويدرك للتوّ أن المتكلم بليغا، أو من شأنه أن يصنع كلاما يوصله إلى مخاطبَه، أما الجناس والسجع فهي من المحسنات اللفظية المزينة للكلام إبصارا وسماعا، ولعل في الشعر إيقاعا موسيقيا يجلب آذان السامعين، وهذا كله من المحسنات اللفظية.

3 ــ المداخل التأسيسية للمناظرة الكلامية:

بعد محاولتنا لضبط بعض مقولات البلاغة العربية، سنقف الآن ــ محاولين ــ أن نبين المداخل التأسيسية لإنتاج ما يسمى المناظرة الكلامية، فبعد تعرفنا على كون هذه الممارسة نوعا من المباراة الخطابية بين اثنين فأكثر، والحاملة لإشكالية الجدال، نتساءل: هل كل كلام يدور بين اثنين يمكن عدّه مناظرة؟ بمعنى أفصح هل كل محاورة هي في الأصل مناظرة ؟ ولما كان الأمر يختص بعلم الكلام الإسلامي، سنسعى لإيضاح منزلة المناظرة كتجل بارز لبلاغة اللغة العربية.

أ ــ الإطار المنهجي والمنطقي للمناظرة الكلامية:

لكل نص إطار، والمناظرة هي نص في شكل حوار يدور بين شخصين فأكثر، أو بين فرقتين متنازعتين، ولما كان النص في غالب الأحيان لغرض البيان والبرهان من كلا الطرفين لا بد له من ضوابط منهجية ومنطقية. ولعل من أبرزها ركنان: الأول: موضوع تجري حوله المناظرة، الثاني: فريقان يتحاوران حول موضوع المناظرة أحدهما مدع أو

[1] – السكاكي: مفتاح العلوم، المصدر نفسه، ص 423.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

ناقل خبر، والآخر معترض عليه[1]، وفي كلمة جامعة لا بد للمناظرة الكلامية من نقطة ينطلق منها وحولها الحوار أو التناظر وكذا، لا بد من وجود باحثين أو متناظرين للقيام بفعل الحوارية. كما لا بد من جهاز منهجي تتبعه المناظرة كالإطار الحواري ـــ في شكل حوارـــ إذ كلما تكلم المخاصم الأول أو المدعي، أو نقول الملقي للدعوى، يجب على المناظر الثاني أو المجادل أن يسمع ويصمت، ولا يمانع ولا يقاطع حتى ينهي الأول دعواه، ثم بعد ذلك، ينطلق في الرد على الأول وهكذا إلى غاية إفحام أحدهما للآخر.

أما الجهاز المنطقي، فيبتدئ بالاستدلال والبرهان، و"هو في اكتساب إثبات الخبر للمبتدأ، أو نفيه عنه بوساطة تركيب جمل، وقولي: بوساطة تركيب جمل، تنبيه على ما عليه أصحاب هذا النوع من إباء أن يسموا الجملة الواحدة حجة واستدلالا"[2]، وطالما أن الاستدلال مبحث من مباحث المنطق في اصطلاح الحكماء أو الفلاسفة، فإنه عند أهل البلاغة العربية يعدونه هو المقوي للجملة، والحريص على تأديتها للمعنى وبناء مقصودها بشكل أفضل للسامع، لهذا سلك علماء الكلام طريق الاستدلال للحجاج على دعاويهم أمام الخصوم سواء أكانوا من المسلمين، أو من باقي أصحاب الديانات الأخرى المجادلة لفرق الإسلام.

ب ـــ فلسفة المناظرة عند طه عبد الرحمان وبلاغتها الكلامية:

ـــ الإبلاغ: يرى طه عبد الرحمن أن المناظرة التي تتم في صورة المحاورة، يجب ـــ وقبل كل شيء ـــ أن يكون مقصدها الرئيسي هو الإبلاغ" فبيّن أن نموذج الإبلاغ يفضل نموذج البلاغة بكونه يبنى على تصور للقائل يجعله قاصدا، لا الخبر وحده كما هو

[1]– عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دار القلم، ط10، بيروت، 2009، ص374.

[2]– السكاكي: مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص438.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

الشأن في نموذج البلاغ، وإنما أيضا إبلاغه إلى الغير، ومعلوم أن قصد الخبر غير قصد إبلاغه"[1]، ولا مناص للإبلاغ من مقصد الإقناع، سواء أكان من طرف المدعي أو من طرف المتلقي للدعوى، أو لنص المناظر، ولهذا تصبح المناظرة في بنيتها النصية من حيث الشكل تتطلب منهجا وقصدا، أما المنهج فهو الاستدلال، وأما المقصد فهو الإبلاغ، والغرض الوحيد منها كإنتاج كلامي هو الإقناع، أو الإفحام لدعاوى المتحاورين والمتجادلين، مهما كانت نحلهم وتديناتهم.

ـــ **الحِجاج:** الحجاج هو صناعة الحجة والبرهان، لغرض الإبلاغ والإقناع، أو الدفاع عن دعوى كانت في الغالب عقيدة المدعي، "فالمحاجة هي أن يورد كل واحد منهم على صاحبه حجة، وهذا يقتضي أن يكون الذي يورد المبطل يسمى حجة، ولأن الحجة اشتقاقها من حجّهُ إذا علا عليه، فكل كلام يقصد غلبة الغير فهو حجة، وقال بعضهم أنها مأخوذة من مَحجَّة الطريق، فكل كلام يتخذه الإنسان مسلكا لنفسه في إثبات أو إبطال فهو حجة، وإذا ثبت أن الشبهة قد تسمى حجة كان الاستثناء متصلا"[2]، ثم يضيف قائلا: "**كلما وقفنا على لفظ الحجاج، تسارعت إلى أذهاننا دلالته على معنى التفاعل، حتى أن ما سواه من مظاهر التفاعل، إن تبادلا للتأثير أو تناقلا للتغيير أو ترابطا وظيفيا أو حتى تجاوبا وجدانيا، تبدو لنا موضوعة على قانونه ومفهومة على مقتضاه، أو قل إن الحجاج أصل كل تفاعل، كائنا ما كان.**[3]"

---

[1]– طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، 2000، ص44.

[2]– سميح دغيم: موسوعة مصطلحات الرازي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، د ت، ص245.

[3]– طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1998، ص 229.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

فالحجاج إذن هو الدعامة البرهانية للممارسة الكلامية، وتتجلى قوة بلاغته في شكل المناظرة، وطالما أن المنطق الناظم هو الاستدلال، فلا بد إذن تاليا من المحاجة، وطه عبد الرحمن يرى بدوره أن الحجاج ليس فقط ضرورة في البرهان الكلامي، بل هو منهج بأكمله، وقد أطلق عليه اسم المنهج الاستدلالي، وهاهنا بات الحجاج منهجا يُتبع لدى المتكلمين، وإلا فإن المناظرة ستبقى مجرد ضرب من الحوارات العقيمة الخالية من المقاصد والمنطق البرهاني، وكل سبيل استدلالي يكون هذا وصفه، فهو سبيل احتجاجي لا برهاني[1]

إن هذا المنطق يقاس بأن يُساق الدليل على قضية بديهية لا تقبل البرهان أصلا، فهو عين السفسطة، وليست هذه هي المحاججة المطلوبة التي تسعى لاستخلاص البراهين المفحمة، وتلجأ إلى تركيب القضايا الاستدلالية في إطار منهجي مقبول محترم منطقيا ومقبول عقلا وصحيح لغة وبلاغة، ليعترف به السامع لحظة الممارسة أو الحوارية، ويستفيد من حكمتها القارئ، أو المُروى عليه بعد التدوين، ولعل تراثنا الإسلامي غني بهذه الفعاليات الحجاجية البلاغية، وقليل منها احتجاجية عن بلوغ مرتبة الكلام البلاغي.

ـــ **مركزية المناظرة في الإنتاج الإسلامي:** إن انتهاج الفلسفة لمنهج المناظرة جعلها تتميز في الإنتاج الإسلامي عن غيره، وبهذا لم يصبح فعل المناظرة في العلوم النظرية فقط كالفلسفة والكلام والمنطق، بل حتى أن هذا الفعل شمل باقي المعارف مثلما طبق وعمم في سائر التراث الإسلامي، فأكسبه خصبا فلسفيا متميزا، فقد أقيمت مجالس للمحاورة عرفت "بالمناظرات"[2]

[1] – طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مرجع سابق، ص46.
[2] – المرجع نفسه: ص68.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

إذن، فالتراث الإسلامي بتعدد تجلياته المعرفية من فلسفة فقه وأصول وتفسير وتصوف وعلم كلام، كل هذا الإنتاج كان ينتهج علماؤه وأصحابه منهج المناظرة في الغالب، بل حتى في المحاورات السياسية والسجالات الحربية والانشغالات اليومية العادية كان يُتوسل بالمناظرة كفلسفة ومنهج خاص ومثمر، حتى وإن كان القصد ليس إنتاجا معرفيا، وعليه كانت المناظرة عصبا مركزيا في الإنتاج الإسلامي عموما.

ـــ **علم المناظرة العقدي أو علم الكلام:** لم يتوان طه عبد الرحمن لحظة في تسمية العلم الباحث في ذات الله وصفاته باسم علم المناظرة العقدي، فهو يقول: "وإذا كانت أغلب المعارف الإسلامية آخذة بمسلك المناظرة الجدلي، فإنها تفاوتت في درجة التقيد به على قدر الافتقار إليه، بمقتضى نوعية شروطها المعرفية و لم يأخذ أي مجال علمي إسلامي بهذا المنهج مثلما أخذ به علم الكلام [1]،

وفعلا، إن الدارس لعلم الكلام الإسلامي يجده انتهج سبيل المناظرة في كل مباحثه على مر القرون الأولى الهجرية، حتى مع تقهقر الحضارة الإسلامية، بل وامتاز هذا العلم بقوة الاستدلال والنظر الحجة، ولهذا نجد أن ابن خلدون عرفه" بأنه علم يتضمن الحجاج في العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية[2]، وبهذا يرى طه عبد الرحمن أن علم الكلام الإسلامي من حق دارسه أن يطلق عليه اسما جديدا ومحدثا، هو علم المناظرة العقدي، ولابد تاليا من شروط لقيام هذا العلم تتوفر في رجل الكلام أو المتكلم[3]

[1]– طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مرجع سابق: ص70.

[2]– ابن خلدون: المقدمة، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001، ص 580.

[3]– طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مرجع نفسه، ص70.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر:05–08–2020

أولا ــ أن يكون معتقدا: لا بد لرجل الكلام أن يكون معتقدا بما ورد في كتاب الله ــ تعالى ــ والسنة المحمدية، لهذا سمي هذا العلم من طرف علماء الكلام بعم التوحيد[1]، كما سمي علم الذات والصفات فاختص بأشرف مباحثه وهذا البحث في ذات الله ــ تعالى ــ وصفاته، والمعتقد يعتقد بالذات والصفات على قانون الإسلام.

ثانيا ــ أن يكون محاورا: لا بد كذلك للمتكلم من المحاورة، فلا خطاب إلا بين اثنين فأكثر، وربما هذه الحقيقة التي رفعت تسمية علم الكلام الذي هو من المكالمة التي تحدث بين اثنين إلى تسميته بمقالات الإسلاميين[2].

ثالثا ــ أن يكون ناظرا: والنظر هو طلب الفكر لشيء مخصوص سالكا إليه طرقا مخصوصة يعتقد أنها قادرة على الظفر به، لهذا نجد النظر خص علم الكلام، فسمي بعلم النظر والاستدلال[3]

وبالجملة، يمكن تلخيص فلسفة طه عبد الرحمن بخصوص المناظرة وبلاغتها الإقناعية في الإنتاج الإسلامي، في أنه وقف على امتيازات منهجية لهذا العلم، وامتيازات معرفية تلزم عنها بالضرورة، أما الامتيازات المنهجية، فلا بد لعلم المناظرة أن يقوم على أسس منطقية، نظرية لا تقبل تناقضا داخليا في نص المناظرة، وهذا ما يزيد بلاغتها المنطقية أو الآلية، في حين أن الامتيازات المعرفية، فهي التي ــ المناظرة ــ شملت جميع المعارف الإسلامية بشتى أبوابها من علوم نقلية أو عقلية، ما أدى إلى ذيوع هذه الصناعة، وما ساعد على ذلك هو قوة وحكمة البلاغة العربية في بناء الكلام وصناعته صناعة بيانية وجمالية، وهذا ــ في تقديري ــ ربما يعود إلى مكانة الحضارة آنذاك من جهة،

[1]– المرجع نفسه: ص71.

[2]– المرجع نفسه: ص71.

[3]– طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مرجع سابق: ص71.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر:05–08–2020

والإعجاز اللغوي والبلاغي في اللغة العربية دون سائر اللغات المنتشرة آنذاك من جهة أخرى.

ج ــ ما لا يجوز في المناظرة عند حبنكة الميداني:

حدد حسن حبنكة الميداني ضوابط ناظمة للمناظرة الكلامية كإنتاج إسلامي أصيل وبارز، ثم راح يبين ما لا يجوز أن يرتكبه رجل المناظرة أو المتكلم أو نقول المبلّغ، إن كان قصده إنتاج معرفة منهجية تصبو إلى كشف الحق واتباعه، فكانت الممنوعات هي:

أولا ــالمصادرة: هي ما يُجعل في الصدر، والصدر المقدم والأول والسابق، واستخدم مفهوم المصادرة منطقيا لإفادة القضية أو الحكم أو الاعتقاد الذي يوضع مقدمة وأولا وسابقا، يعدّ غير محتاج إلى برهنة، أو إثبات من جهة ويكون من جهة أخرى دليلا يستند إليه في إثبات قضايا أو أحكام أو اعتقادات[1]. وهي نتيجة الدليل ومقدمته في الآن نفسه، مع تغيير في اللفظ لإيهام السامع ــ حسب حبنكة الميداني ــ فالغرض من المصادرة إيهام المستدل خصمه بمغايرة النتيجة للمقدمة لذلك فهي وظيفة ممنوعة غير مقبولة في الاستدلال وللخصم دفع الدليل بعلة المصادرة فيه[2]،

إذن، فالمصادرة ممنوعة في الممارسة الكلامية التناظرية، وفي إطار المناظرة، لأنها برهان بالمقلوب من جهة التمويه، وهذا ينقص من قيمة المتكلم من جهة الدعوى المحاجج هو عليها، وكذا يكون الإنقاص من قوة البلاغة والاستدلال، وطالما أن البلاغة هي من البيان والإبلاغ، فإن كل مصادرة عن المطلوب هي خروج عن جادة الإيضاح والتبليغ

[1]– حمو النقاري: معجم مفاهيم علم الكلام المنهجية، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ط1، بيروت، 2016، ص478.

[2]– حبنكة الميداني: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، مرجع سابق، ص451.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

الصائب، وتصبح المناظرة بهذا شكلا من المماراة اللفظية البعيدة عن منهجية الاستدلال والنظم المنطقي، وتاليا يصبح المناظر مموها وبعيدا عن أخلاق المناظرة الحقيقية والهادفة.

ثانيا ــ الغصب: وهو أخذ المناظر وظيفة الاستدلال على بطلان دعوى للخصم قبل أن يترك له فرصة إقامة الدليل عليها، كقول المعلل: هذا الكون أزلي، ويقول السائل، هذه الدعوى باطلة، لأن الكون متغير وكل متغير حادث[1]، فنحن نلاحظ أن المعلل لم يقدم حججا ودلائل على دعواه، والسائل غصب في إبطال موقفه.

ثالثا ــ المجادلة لا لإظهار الحق: يراد من المجادلة، المنازعة لا لأجل إظهار الحق، بل لأجل الانتصار على الخصم، بإلزامه أو إفحامه، وهي ممنوعة شرعا[2]، وقد نزلت سورة قرآنية باسم المجادلة، لأن نوع من المراء دون الانتصار للحق، بل الانتصار فيها يكون لفرقة أو لأهواء وهكذا، فهي ليست من المناظرة في شيء.

رابعا ــ المكابرة: هي المنازعة لا لإظهار الصواب، ولا لإلزام الخصم، ولكن لإظهار الفضل، ومن المكابرة نقض الدليل بلا شاهد، أو منع البديهيات وعدم التسليم بها [3]

خامسا ــ المعاندة: هي في اصطلاح أهل هذا الفن المنازعة بين شخصين لا يفهم أحدهما كلام صاحبه، وهو يعلم ما في كلام نفسه من الفساد ومجانبة الصواب[4]، وهي أيضا من السفسطة والمراء في المناظرة ومن أسباب إنقاص بلاغتها.

[1]– المرجع نفسه: ص ص452 ــ 453.
[2]– المرجع نفسه، ص453.
[3]– المرجع نفسه: ص 454.
[4]– المرجع نفسه: ص 454.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

سادسا ــ الجواب الجدلي: هو ما يذكره المجيب وهو يعتقد بطلانه، سواء أكان باطلا في الواقع ونفس الأمر أو غير باطل، وطالما أن المقصود منه واضح التمويه فهو لا يجوز في المناظرة[1]، لأنه ينقص من عمل المتكلم البلاغي والاستدلالي بوجه التحقيق والانتصار للحق.

هذه إذن ــ حسب الميداني ــ الممنوعات في إنتاج المناظرة الحقيقية والهادفة، لأنها كلها تسهم في إبعاد المناظرة عن غرضها البلاغي والتبليغي، ولما اشتهرت في الإنتاج الإسلامي أكثر من غيره، دل ذلك على عمق اللغة العربية واحتوائها لمعاني دلالية كافية لحشد الحجج وبناء المقدمات وتوجيه النتائج[2]، وقد وظف المتكلمون طرقا عقلية للاستدلال لم تكن حكرا على توظيف الفلاسفة في صناعة المنطق وحسب، بل أصبحت من ضروريات الكلام الإسلامي وأولياته الأساسية.

وبهذا نكون ــ بقدر الإمكان ــ قد حاولنا تبيان أهم معالم البلاغة العربية في المناظرة الكلامية، وقوة الإقناع والحجاج في الممارسة الجدلية العقدية، اعتمادا على هذه البلاغة نفسها، كما سعينا لرصد ضوابط منطقية ومنهجية وأخلاقية واجبة الوجود لتنظيم وبناء المناظرة الكلامية، معتمدين في ذلك على طه عبد الرحمن وحسن حبنكة الميداني، وليس من المبالغة أن نقول أن بروز علم الكلام الإسلامي بين سائر العلوم الشرعية عائد إلى اشتغاله بأصول الدين والبحث في الذات الإلهية فقط، بل لدرجة بلاغة ألفاظه وقوة بناء حججه، وانتهاجه لطرق استدلالية جد محكمة، جعل هذا العلم يسطع رئيسا للعلوم الشرعية، متجليا في صورة المناظرة التي تميزت بثلاث خصوصيات، الأولى أنها تأصلت بالبحث في أصول الدين، والثانية أنها اتخذت من مقولات المنطق والعقل

[1] – حبنكة الميداني: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة. مرجع سابق: ص454.

[2] – عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، ط1، بيروت، 2013، ص156.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر:05–08–2020

منهجا للنظر والبحث، والثالثة أنها قولبت في اللغة البلاغية البيانية الهادفة إلى التوصيل وإيضاح المعاني، فكانت إذ ذاك المناظرة المميز الكبير للإنتاج المعرفي الإسلامي على الإطلاق.

4 ــ تحليل ورصد بلاغة المناظرة الكلامية:

أ ــ بلاغة المناظرة بين الإمام الشافعي والإمام أحمد*[1]

ــ نص المناظرة: حكي أن أحمد ناظر الشافعي في تارك الصلاة، فقال له الشافعي: يا أحمد أتقول إنه يكفر؟

قال: نعم

قال: إذا كان كافرا فبم يسلم ؟

قال: يقول لا إله إلا الله، محمد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ

قال: فالرجل مستديم لهذا القول، لم يتركه.

قال: يسلم بأن يصلي.

قال: صلاة الكافر لا تصح، ولا يحكم بالإسلام بها.

ب ــ المسار الشكلي للمناظرة:

نلاحظ أن المناظرة اتخذت شكلا وصورة تختلف عن شكل النص الشعري أو النثري العادي، وليست حتى كالخطابة، فجاءت في صورة محاورة متوازنة يحكم منطقها ومسارها السؤال ثم الجواب وهكذا (أتقول أنه يكفر؟، قال: نعم)، ثم أن الأسئلة

* **أحمد بن حنبل:** هو أحمد بن حنبل بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله، فقيه أهل السنة في زمانه وإمامها، ولد سنة 164هـ ببغداد، وتوفي بها سنة 241هـ. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، المجلد الأول، ص64)

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

المطروحة من الإمام الشافعي موجزة، وكذلك الأجوبة التي يقدمها الإمام أحمد، وتمتاز بالترتيب والتقارب بين عدد الكلمات في السؤال والجواب، وهذا أيضا من جماليات الشكل في هذه المناظرة، وبالجملة اتخذت هذه المناظرة جميع ضوابطها الصورية والشكلية من ترتيب وتعقيب بين الأسئلة والأجوبة وكذا المسار الاستدلالي المنطقي إلى غاية انتهائها.

ج ــ الفعالية المضمونية:

هذه المناظرة تشتمل على مضامين معرفية وأخرى آلية استدلالية، وهاهنا تبرز بلاغتها اللغوية، ولا مجاملة والمناظرة قد حدثت بين فقيهين لمذهبين يُشهد لهما بالعلم بشتى تخصصاته.

أولا ــ بلاغة التبليغ والإقناع عند الشافعي: المتأمل لمسار المناظرة يجد أن الشافعي يسأل أسئلة مفهومة لا تقبل أي محاولة للتأويل كقوله "**إذا كان كافرا فبم يسلم؟**"، وفي هذا السؤال نستنبط استدلالين بلاغيين، الأول هو الإيجاز، والإيجاز إذا نقص التعبير عن قدر المعنى[1]، والثاني هو الطباق كما هو معروف الجمع بين الشيء وضده في الكلام[2]، والإمام هنا لم يطنب في طرح السؤال بل أوجز، وهذه بلاغة في قوة التبليغ للسامع لتلقي السؤال موجز العبارة ووافي المعنى، وكذا أكد على مصادرة الإمام أحمد وهي الكفر التي تقابل بالضد الإسلام، فشكل في سؤاله محسنا بديعيا هو الطباق، وهذا أيضا يزيد في معنى السؤال وأخذه بعين الجد من طرف الإمام أحمد.

وبعد هذه البلاغة الإبلاغية لدى الشافعي، أدرك الإمام أحمد أن المقابل للمسلم ــ في العقيدة ــ هو الكافر، والمسألة هاهنا هي ترك الصلاة عند المسلم فقط، وهذه

[1] – أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة: مرجع سابق، ص 195.
[2] – المرجع نفسه: ص 303.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

المرحلة الأولى في المناظرة، "وفي هذه المرحلة يتم تعيين محل النزاع، حتى لا يتشتت الفريقان في أطراف غير متقابلة، وحتى لا يتكلم كل منهما في واد غير الوادي الذي يتكلم فيه مناظره[1]".

وقد كانت بداية الكلام للإمام الشافعي، حينما بيّن مسألة الجدال والمحاورة وهي تارك الصلاة من المسلمين، أهو كافر أم لا؟، وبذلك بسط الحديث في شكل سؤال استشكالي مع الإمام أحمد ثم عمد الإمام بدوره إلى الرد والقياس والاستدلال على الأصول، لأنه بصدد إصدار حكم فقهي يُقضى في تارك الصلاة.

ثانيا ــ جوابان لسؤال واحد عند الإمام أحمد: عندما سأل الإمام الشافعي الإمام أحمد: أهو يكفر؟ قال: أنه يكفر، ولما سأله مرة أخرى، فبم يسلم؟، قال: يقول الشهادتين، حينئذ قال الشافعي: الرجل لم يترك الشهادتين بل ترك الصلاة، وهنا تفطن أحمد إلى جواب آخر للسؤال نفسه بأن يسلم بالصلاة، والمتأمل يجد أن الإمام أحمد تراوح بين جوابين لسؤال الشافعي (بم يُسلم تارك الصلاة إذا كان قد كفر؟)، وله في ذلك بلاغة استدلالية قائمة على الرجوع إلى وجوب الصلاة على كل مسلم لكونها من أركان الإسلام، وتنتهي المناظرة بسكوت الإمام أحمد وانقطاعه عن الرد على قول الشافعي: "صلاة الكافر لا تصح".

ولعل الإفحام بيّن هنا في التزام الإمام أحمد وانقطاعه، وإذا "عجز المعلل عن رد اعتراض السائل، كان المعلل مُفحما، وإذا عجز السائل عن تصحيح اعتراضه كان مُلزما[2]"، وفي كلمة موجزة تجلت بلاغة هذه المناظرة في قوة التبليغ والإبلاغ من طرف الإمامين المتناظرين، والإيجاز في طرح الأسئلة وتقديم الأجوبة، وكذا في أساليب المعاني

[1] – حبنكة الميداني: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، مرجع سابق: ص376.
[2] – حبنكة الميداني: المرجع نفسه، ص 376.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

الاستدلالية من طباق ومقابلة وغيرها، كما أن المناظرة اشتملت على الإطار المنطقي الذي يتمظهر في قوة الاستدلال، ومن ثمة بلوغ الشافعي مرتبة الإقناع وتاليا بلوغ أحمد مرتبة الاقتناع كذلك، وهذا كله دال على حكمة الإمامين واقتدارهما على صناعة المناظرة والوصول بها إلى ضوابطها المنطقية التي ترفعها عن السفسطة، وتصونها بالآداب الأخلاقية التي ترفعهما عن المتمارين والمتجادلين.

ب ــ مناظرة أبي العلاء المعري[1] والشريف المرتضى:

ــ نص المناظرة:

دخل أبو العلاء على السيد المرتضى ــ قدس الله روحه ــ فقال، أيها السيد: ما قولك في الكل ؟

قال: ما قولك في الجزء ؟

فقال: ما قولك في الشعرى ؟

فقال: ما قولك في التدوير ؟

قال: ما قولك في عدم الانتهاء ؟

قال: ما قولك في التحيز والناعورة ؟

فقال: ما قولك في السبع[2] ؟

فقال: ما قولك في الزايد البري من السبع ؟

فقال: ما قولك في الأربع ؟

---

[1]– **أبو العلاء المعري:** هو أحمد بن عبد الله بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة، من أهل معرة النعمان بالشام، كان غزير الفضل وافر العلم حذقا بالنحو، ولد سنة 367هـــ، وتوفي سنة 449هـــ. (انظر معجم الأدباء: ياقوت الحموي الرومي، ص295)

[2]– الطبرسي: الاحتجاج، ج2، منشورات الشريف الرضي، ط1، إيران، ص 280.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر:05–08–2020

فقال: ما قولك في الواحد والاثنين ؟

فقال: ما قولك في المؤثر ؟

فقال: ما قولك في المؤثرات ؟

فقال: ما قولك في النَّحسين ؟

فقال: ما قولك في السّعدين ؟

فبُهت أبو العلاء.

قال: فقال السيد المرتضى ـــ عند ذلك ـــ ألا كل ملحد ملهد ؟

فقال أبو العلاء: من أين أخذته؟، قال: من كتاب الله[1] "**قَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾(**لقمان13**)

أولا ـــ تجليات البلاغة في المناظرة: هذه المناظرة تتمثل حكمتها النظرية في عمقها البلاغي، لا سيما وقد ساوقها المتناظران في قالب رمزي محض، إذ لا يعدو السامع لها من فهم أي معنى وراء الكلمات، بل قد لا يتمكن البعض من فحص المدعي وتمييزه عن المعترض، ولو لا شرح وفك الرموز عقب المناظرة من طرف الشريف المرتضى لبقيت المعاني معلقة ومشفّرة، ولا يعلم أسرارها سوى المتناظران، أبو العلاء والمرتضى، أو نقول في كلمة موجزة لا يعلم تأويلها إلا طرفي المناظرة.

ثانيا ـــ بلاغة الإيجاز: طالما أن الرمز هو السمة المميزة لهذه المناظرة فإن بلاغة الإيجاز هي الناظمة لمسار التناظر في الأسئلة والأجوبة بين المتناظرين، ونحن نلاحظ بوضوح جمال النص الحواري وتسلسله في شكل تَشابه مع الشعر الموزون، رغم التكرار الذي يعتريه ـــ ما قولك؟ ـــ خلال الخطاب كله، هذا ويظهر الإيجاز في تقديم المرتضى

[1] – المصدر نفسه: ص 281.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر:05–08–2020

الأجوبة للمعري في شكل أسئلة، وهذا أيضا زاد قوة البلاغة الإيجازية، لأن السؤال الذي يقدمه المعترض (المرتضى) هو الجواب لسؤال المدعي (المعري)، وفي الآن ذاته هو سؤال للمعري، ولذلك نجد المعري قد فهم على محاوره جميع اعتراضاته إلى أن أفحم في نهاية المناظرة.

ثالثا ــ بلاغة الكناية: الكناية ضرب من البيان في البلاغة، وهي استعمال اللفظ في معناه الموضوع له ليراد منه لازمه، مع جواز إرادة الملزوم وهو المعنى الموضوع له اللفظ، ولها أركان وهي المكنى به والمكنى عنه والقرينة المرشدة إلى المعنى الكنائي، وهي غالبا حالية[1]"، والنص الحواري في هذه المناظرة غني جدا بالكنايات، وبمعنى أوضح، إن كل الرموز العارضة بين المتحاورين هي في الحقيقة كنايات، لهذا جاء طابع المناظرة رصينا وقوي التشفير، لهذا تحتاج تأويلا وتفكيكا وهذا ما فعله المرتضى في نهاية الحوار.

رابعا ــ بلاغة الطباق: كما نلاحظ كذلك أن المحسن البديعي البارز طيلة المناظرة هو الطباق المشتمل على ذكر اللفظ وضده، كالكل والجزء، والنحسين والسعدين، وبهذا تم رفع المناظرة إلى مستواها الإنتاجي، وشيوع المظاهر البلاغية فيها أكسبها عمق الاستدلال وقوة الإقناع.

وهاهنا نكون ــ بقدر المستطاع ــ قد حللنا بلاغة المناظرة الحادثة بين المعري والشريف المرتضى، وقد بان من خلالها عمق النص الحواري، واشتماله على البعد البرهاني والحجاجي في ثوب بلاغي جد محكم، والنسق البنائي الواضح في تعاقب الأسئلة والأجوبة وتراتُبها، دال على مركزية المناظرة كمنهج ناجح في الإنتاج المعرفي الإسلامي، وقد وقفنا نحن على التمثيل بعلم الكلام، الذي افتقر إلى منهج المناظرة أكثر من باقي

[1] – معين دقيق العاملي: دروس في البلاغة، دار جواد الأئمة، ط1، بيروت، 2012، ص ص157 ــ158.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

العلوم لأنه العلم المنتج بالكلام، وليس الكلام حاصلا إلا بين اثنين فأكثر، وهذا عين الحوار، وطالما أن الحوار في جله يؤدي إلى الاختلاف، فلا مناص إذ ذّاك من الاستدلال لإقامة المعرفة الصحيحة وإبطال الدعاوى السفسطائية القائمة على الحجج الضعيفة.

الخاتمـــة:

بعد هذه المعالجة التي نراها لم تستوف المقصود بشكل كامل من الإشكالية المطروحة حول بلاغة اللغة العربية وتجليها في المناظرة الكلامية، يمكننا القول أن كلاّ من اللغة العربية والعقلانية الإسلامية التوحيدية قد أسهما في تقوية الإطار الاستدلالي للمناظرة، وتاليا في تجلية قوتها الإقناعية من طرف المُناظر الأول أو المدعي، والإقتناعية من طرف المُناظر الثاني أو المعترض، وبالجملة يمكن استخلاص النقاط التالية:

ـــ البلاغة هي المميز البارز للغة العربية دون سائر اللغات، وما زاد ذلك برهانا أنها لغة القرآن المصطفاة، في قوتها الإيجازية والإعجازية، ولا مناص من القول بهذه الدعوى لأن نص القرآن هو التحدي الإلهي الأزلي للعرب وغيرهم. فلا بلاغة أسمى من بلاغة العربية ولا مكابرة في هذا ولا معاندة.

ـــ حكمة المناظرة في الإنتاج الإسلامي وتجليها يعود إلى سببين بارزين: أما الأول فعائد إلى لسان المناظرة وهي اللغة العربية التي ذكرنا أنها بلاغية في أصلها، وأما السبب الثاني فينصرف إلى اشتغال المناظرة بالمسائل العقدية الدينية، والتي تمثل أعمق الموضوعات من حيث البحث وبالتالي تتطلب أكبر البراهين والحجج، وها هنا كسبت المناظرة قوتها البلاغية من جبهتين، جبهة اللغة العربية من حيث جماليات المظهر، وجبهة الدين الإسلامي من حيث جماليات الجوهر.

ـــ كذلك ما زاد قوة المناظرة هو ترجمة الفلسفة اليونانية إلى العربية، بما في ذلك المنطق الذي يختص بالعلوم النظرية المنتجة، ولعل علم الكلام الإسلامي منها، فكانت المناظرة

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

المنهج المثالي الذي ظل المتكلمون يتوسلون به لإثبات دعاويهم أمام الخصوم، وفي كلمة تُعد المناظرة هي أكبر صور البلاغة في الممارسة الكلامية الإسلامية.

قائمة المصادر والمراجع:

1 ــ ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة، مادة: بلغ .

2 ــ ابن خلدون: المقدمة، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001.

3 ــ أبو جعفر محمد بن الحسن النيسابوري: الحدود، المعجم الموضوعي للمصطلحات الكلامية، تحقيق: محمود يزدي مؤسسة الإمام الصادق، قم.

4 ــ حمو النقاري: معجم مفاهيم علم الكلام المنهجية، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ط1، بيروت، 2016.

5 ــ الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، 1998.

6 ــ الطبرسي: الاحتجاج، منشورات الشريف الرضي، ط1، إيران.

7 ــ طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، 2000 .

8 ــ طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1998.

9 ــ محمد علي زكي صباغ: البلاغة الشعرية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 1998.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 465–491 تاريخ النشر: 05–08–2020

10 ــ محمد قائمي وآخرون، معجم المصطلحات الكلامية، مجمع البحوث الإسلامية، إيران، مادة: المناظرة.

11 ــ محمد مصطفى: علم البيان، دار العلوم العربية، ط1، بيروت، 1989.

12 ــ معين دقيق العاملي: دروس في البلاغة، دار جواد الأئمة، ط1، بيروت، 2012.

13 ــ القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل، كتاب خلق القرآن، تقويم: إبراهيم الأبياري، إشراف طه حسين، دط، د ت .

14 ــ سعد الدين التفتازاني: شرح العقائد النسفية، تقديم: مجلس المدينة العلمية، مكتبة المدينة، ط2، باكستان، 2012.

15 ــ السكاكي: مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1987.

16 ــ سميح دغيم: موسوعة مصطلحات الرازي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، د ط، د ت.

17 ــ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دار القلم، ط10، بيروت، 2009.

18 ــ عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، ط1، بيروت، 2013.